من خوف الكوليرا فى كوليرا !

دخلت أزور ابن عم لى فى داره فلقيتنى زوجه فى الدهليز وما وقع بصرها على حتى قالت وهى تضحك : هلم فهذا منظر خليق بأن تراه من وراء منظارك ، ولقد خطرت ببالى الساعة وأنت على السلم ؛ وقادتنى إلى حجرة الطعام حيث كان زوجها يتهيأ لتناول عشائه .

ودخلت فى سكون ولم أحى فلم ينتبه إلى ، ونظرت فإذا بالمسكين يجلس إلى المائدة وقد وضع رجله اليمنى فى « حلة » على الأرض عن يمين مقعده تبينت فيها سائلا ما ورجله اليسرى فى « حلة » أخرى عن شماله وهو يغسل يديه فى وعاء على خوان قريب منه وعلى صفحة وجهه سحابة مركومة من الهم ، وضحكت وضحكت زوجته فرفع رأسه وابتسم ابتسامة ضئيلة لم تلبث أن غرقت فى هذا السحاب المركوم ، وأراد أن ينهض فلم يستطع لبعد ما بين الحلتين ، ثم قال فى إشارة حازمة وفى لهجة جازمة : لا تؤاخذنى أرجو أن تغسل يديك فى هذا الوعاء ، ونظر إلى زوجته نظرة عتب وسألها لم لم تطلب إلى أن أغسل يدى فى الوعاء الخارجى لدى الباب ، وكأنه لم يعجبه ضحكها فى هذا الموطن ، موطن الجد الرهيب فطلب إليها فى شىء من العنف أن تغسل يدها ، وفهمت أن ذلك لأنها سلمت على ، فشت حمرة خفيفة فى محياها الأبلج ولم تجد بداً من إطاعته إشفاقاً عليه كما قالت مداعبة إياه فى رفق ...

وراحت ربة البيت تشرح لى هذه المسائل التى يغمس فيها رجليه ويديه ، وتضحك إذ تقص على كيف يغسل يديه كلما لمس شيئاً ، وكيف يدعو بائع اللبن وبائع الصحف وغيرهما إلى غسل أيديهم قبل أن يناولوه شيئاً وكيف لا يفوته كلما نقص وعاء الغسيل لدى الباب أن يملأه بالمحلول ...

وينظر إليها زوجها إذ تضحك فيمتلىء غيظاً ويسألها كيف لا تدرك وهى الثقة المهذبة أن الأمر جد لا هزل ، وفهم هذا الضحك الذى ينطوى على عدم المبالاة والذى يفهم منه أنها لن تعمل فى عيبته شيئاً مما يدعوها إليه من وقاية ؟

ولم تغب عن منظارى بقية « الاستحكامات » فى الحجرة فهذه مضخة قريبة بها من السائل كيت وكيت ، وتلك أخرى بها من المساحيق كيت وكيت ، وثالثة ينطلق منها إذا فتحت غبار كثيف لمطاردة الذباب ، وكم ذكرتنى بشبيهاتها من المدافع التى كانت تنصب لمطاردة الطائرات زمن الحرب . .

ونظر رب الدار فإذا أحد الأطباق يظهر جانب منه من تحت الغطاء القماشى فتأفف ونظر فى وجه امرأته نظرة حنق وسحب القماش فغطى الطبق ؛ وسألته فيم هذا الغطاء ؟ فنظر إلى وكأنه ينظر إلى معتوه ثم قال ، ألا ترى أن ذبابة واحدة كفيلة بأن تقتل من فى المنزل جميعاً بل من فى الحى كله إذا وقعت على الطعام ؟ فقلت : إذا كان هذا مبلغ خوفك من الذباب فى الليل وهذه المدافع من حولك فليلطف بك الله فى النهار !

وضحكت زوجته ضحكة عالية ثم نظرت إليه معاتبة وما تريد إلا أن تسرى عنه وقالت : أتذكر الحرب ؟ صور لنفسك إحدى طوائر الألمان النقضة وقد هبطت من السماء على دارك فهذا هو شأنه تلقاه ذبابة مسكينة من الذباب .

وما أتمت كلامها حتى نظر إليها وراح يقلد لهجتها ونطقها مستهزءاً وهو يقول : ذبابة مسكينة من الذباب ! المسكين أنت ! لقد كان من المتأبى عاصم من الطائرات وما الذى يعصمنا من ذبابتك المسكينة ؟

وقلت له ما الذبابة بمسكينة ولا زوجتك بمسكينة ، وإنما أنت المسكين فهذا عذاب ليس مثله عذاب ؛ وضحكنا جميعاً وكشف الغطاء عن الطعام ليأكل ، وقمنا نداعبه فوقفت عن يمينه وفى يدى إحدى المضختين وقامت زوجته عن يساره وفى يديها المضخة الأخرى ، وكلما ابتلع لقمة حمد الله ونحن ندعوه إلى الطمأنينة فلن نسمح للذبابة أن تقرب من المائدة حتى يفرغ من طعامه ...

وانصرفت ، وفى نفسى أنى لن أرى من هو أشد من ابن عمى وهماً ؛ ولكن منظارى وقف بى فى صباح اليوم التالى على منظر أنقله للقارىء فى غير نقص أو زيادة :

انحنت عجوز أمام باب إحدى جرائدنا الكبرى وراحت تقيىء وفزع الناس بالضرورة وابتعدوا عنها واقترح بعضهم طلب الإسعاف ؛ ومر شاب وجيه المظهر بادى القوة كثير الأناقة ،